تـنـويـــــــه

أصل هذا الكتاب رسالة المؤلف لنيل درجة التخصص (الماجستير) في الأدب والنقد بعنوان: "ابن جنِّي ناقدًا"، وقد نوقشت في كلية اللغة العربية بالمنصورة، يوم السبت 28 رجب 1418هـ، الموافق 29 نوفمبر 1997م، وقد تكونت لجنة المناقشة من كل من:

1- الأستاذ الدكتور/ محمد حامد شريف (مشرفًا)

2- الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيوميّ (مناقشًا)

3- الأستاذ الدكتور/ طه مصطفى أبو كريشة (مناقشًا)

وقد منح الباحث درجة التخصص (الماجستير) في الأدب والنقد، بتقدير: ممتـــاز.

وقد اعتمدت الدرجة العلميَّة في مجلس الجامعة المنعقد بتاريخ 17 شوال 1418هـ، الموافق 14 فبراير 1998م.

مُفْتَتَح

إلى ابن جنّي في مرقده المُخْضَرّ

يَـا عَاشِـقَ الحَـرْفِ، أَشْـبَاهٌ مَرَامِينَـا ... هِـيَ الـصَّبابَةُ فِـي الأَحْـشَاءِ تُـدْنِينَا

تُعَـانِقُ الـرُّوحَ، تُـضْفِي بَيْنَنَـا أَلَقًـا ... وَتَـزْرَعُ الحُـبَّ مُخْـضَرًّا بِوَادِينَـا

تُرَتِّـلُ الوَصْـلَ آيًـا فِي جَوَانِحنَـا ... لِيَكْتُـبَ الـوَحْيُ سِـرًّا مِـنْ تَنَاجِينَـا

وَتَعْبُـرُ الأَرْضَ وَالتَّـارِيخَ فِي وَهَـجٍ ... حتَّـى نَـذُوقَ كُئُـوسَ الحُـبِّ مِـنْ فِينَـا

يَـا فَـاتِحَ البَـابِ فَيْـضًا مِـنْ عُرُوبَتِنَـا ... يُـسَابِقُ الـشَّمْسَ، لِلْعَلْيَـاءِ يَحْـدُونَا

صَـبَرْتَ حَتَّـى مَلَكْـتَ الـنَّجْمَ مُؤْتَلِقًـا ... فَـذَابَ شَـهْدًا عَلَـى ثَغْـرِ المُحِبِّينَـا

وَطُفْـتَ بَـيْنَ رِيَـاضِ الـشِّعْرِ مُنْتَقِيًـا ... بَـدَائِعَ الزَّهْـرِ مِـنْ مَغْنَـى قَوَافِينَـا

تُغَـازِلُ القَـوْلَ كَـيْ يُعْطِـي مَقَادَتَـهُ ... حتَّـى افْتَرَعْـتَ مِـنَ الأَبْكَـارِ سَـبْعِينَا

وَتَبْعَـثُ النُّـورَ فِي الغَابَـاتِ مُظْلِمَـةً ... كَيْمَـا يُـضَاحِكَ نُـورُ الـشِّعْرِ قَارِينَـا

حَتَّـى غَرَسْـتَ بِـأَرْضِ اللَّفْـظِ أَجْنِحَـةً ... تَطِـيرُ بِـالْقَوْلِ فِي أُفْـقِ المُجَلِّينَـا

تُـدَاعِبُ الـشَّمْسَ، تَقْفُـو فِي أَشِـعَّتِهَا ... سَـنَابِلَ الـوَحْيِ أَطْيَافًـا تُحَيِّينَـا

إِلْهَامُـكَ العَـذْبُ نُـورٌ فِي مَلامِحِـهِ ... فَـيْضُ البَلاغَـةِ يَغْتَـالُ الـدُّجَى فِينَـا

يَا سَاحِرَ الحَرْفِ، جِنٌّ أَنْـتَ أَمْ بَشَرٌ؟ ... تُخَاطِـبُ المَيْـتَ كَـيْ يَحْيَـا بِأَيْـدِينَا

ذَهَبْـتَ بَـيْنَ رَمَـادِ الأَرْضِ مُنْطَفِئًـا ... وَعَـاشَ نُـورُكَ فِي الظَّلْمَـاءِ يَهْـدِينَا

سَـلامُ صَـبٍّ يَـزُفُّ الـشِّعْرُ دَعْوَتَـهُ ... لِطُهْـرِ رُوحِـكَ فِي خُلْـدِ النَّبِيِّينَـا

شعر : مصطفى السواحلي

مُقدِّمــة

فِدًى لأَبِي الفَتْحِ الأَفَاضِلُ إِنَّهُ ... يُبِرَّ عَلَيْهِمْ إِنْ أَرَمَّ وَإِنْ قَالا

إِذَا جَرَتِ الآدَابُ جَاءَ أَمَامَهَا ... قَرِيعًا وَجَاءَ الطَّالِبُونَ إِفَالا

الشريف الرضيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

اللهَ أحمدُ على أن حبَّبَ إليَّ العربية، وجبلني على الشغف بلغة خير البريَّة، وعصمني من زيْفِ المُسْتشرقين وزَيْغِ المُستغربين الذي لم يُجْدِ علينا إلا التسوُّل من الأعجمين، والتوسُّل إلى الأعداء المُخادعين.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله شهادة تَعْنُو لجلالها السماوات وما أظلَّتْ، وتنوء بحملها الأرضون وما أقلَّتْ.

وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، خير ولد عدنان، وخير من أفصح فأبان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه اللُّسْنِ المقاويل، الصِّيدِ البهاليل، الذين أدُّوا حُجَّة الله البالغة بسلاح البيان، ورفعوا راية الإسلام بسِنان اللسان.

أما بعد...

فهذا بحث مشوّق مشوّك:

أما كونه مشوقًا:

* فلأنَّه يرتاد حقلًا لم تطأه - بهذه الصورة - قدمان، ويفترع أبكارًا لم يطمثهنَّ - فيما أعلم - إنسان، فقد عُرف **أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت** 392 **هـ)** عالمًا من علماء النحو والتصريف وأصول اللغة، حيث بذَّ فيها جميعًا المتقدِّمين وأعيا المتأخِّرين، وافتتح منها أبوابًا مُحَجَّبة، وأظهر منها معاني مُغيَّبة، وأنفق عمره يمارس اللغة ممارسة الرائض الحاذق، حتى دنا له قَصِيُّها، ودان له عَصِيُّها، وأتى حقًّا - وإن كان الأخير زمانه - بما لم تستطعه

الأوائل، ونُسِي أبو الفتح أديبًا وناقدًا له من البحوث الرائدة والنظرات الناقدة ما يضمُّه إلى صفوف كبار النقاد.

* ولأنَّه يرسم صورة مُشْرقة من صور العِناق الحميم بين جناحيْ اللغة الأدبيّ والعلميّ، فقد فرَّقْت طريقة الدرس الحديثة بين الشق العلميّ للغة ممثَّلاً في نحوها وصرفها وأصواتها وفقهها، والشق الأدبيّ ممثَّلاً في أدبها وبلاغتها، فسار الدرس في خطين متوازيين لا يلتقيان، بينهما برزخٌ لا يبغيان، لكنَّ ابن جنِّي استطاع أن يتخطَّى هذا البرزخ، وأن يكتب اللغة بلسان الأدب، وأن يفهم الشعر بوحْيٍ من الفقه اللغويّ العميق، فكان هذا المزيج الرائع الذي يجمع بين دقَّة العلم وحلاوة الفنّ، والذي يندِّد عمليًّا بهذه الوضعيَّة الجائرة التي ابتدعناها ثم اتَّبعناها.

* ولأنَّه يجلِّي إحدى أهم الصفحات في حديث النقاد عن شاعر العربية الأكبر أبي الطيِّب أحمد بن الحسين المُتنبِّي، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، والذي نام ملء جفونه عن شوارده، وأسهر الخَلق، يحاولون تقييد أوابده وترويض شوارده، فكانت المعارك الحامية التي طارت فيها هامات، وعلت فيها رايات، وقد كان شرحا ابن جنِّي لديوان الشاعر مركز دائرة المعارك، فنال ابن جنِّي أكبر نصيب من آثار تلك النار المتأجِّجة، التي ترمى بشرر كالقَصْر.

وأمَّا كونه مشوّكًا:

* فلأنَّ الباحث فيه يتعين عليه أنْ ينتقر لمحات ابن جنِّي من ثنايا تراثه الضخم، وأنْ يُغامر بالسباحة في محيط اللغة، تتقاذفه أمواجُها، وتُعَنِّيه أثباجُها، في محاولةٍ مستميتة لاقتناص تلك الدُّرر من القاع السحيق، ثم تبدأ محاولة التأليف بين تلك اللمحات المتناظرة، ثم محاولة الحُكم عليها من خلال ميزانٍ نقديّ فاهم، وهو عمل من دونه خَرْطُ القتاد، ولا يَقْدُره إلاّ من عانى مشقّته وقطع شُقَّته.

* ولأنَّ طبيعة البحث ألجأت الباحث إلى التعامل مع مخطوطاتٍ عتيقة لم ترَ النور بعد، في محاولة لبعث الحياة في تلك الجُثث المحنَّطة بداخل القبور، والتي تكتب بلسان الحال أبلغ قصيدة في رثاء مجد أثلَّه الآباء وضيَّعه الأبناء.

* ولأنَّ مصادر البحث المطبوعة يعاني أكثرها من الغربة، إنْ في مكتبات الرسائل الجامعية يجلِّلها التراب البغيض، وإنْ بالعيش في أقطار بعيدة المزار، وإنْ بطباعتها في زمانٍ قديم يجعل الوصول إليها أمرًا متعذِّرًا، فكان لزامًا على الباحث أنْ يتخطَّى كلَّ هذه الحواجز الزمانيَّة والمكانيَّة، وأن يتحمَّل المزيد من لأْواء السفر وعناء السهر بحثًا عن الحقيقة.

* ولأنَّ بعض الكتب في هذا الموضوع تجأر بالشكوى إلى ربّها، بسبب ما أصابها من تشويه جارح واعتداء أثيم على حُرمة النصّ فيما سُمِّي تحقيقًا، وهو تلفيق وتحريف واجتراح لأُسس هذا العلم الشريف، فكان لزامًا على الباحث أنْ يأخذ منها بِقَدَرٍ، وأنْ يتعامل معها بِحَذَرٍ، وأنْ ينظر إليها نظرة المحقِّق المدقِّق الذي تراوحه أطياف الاحتمال، وينأى عنه اليقين كما نأى العَيُّوق.

تلك بعض العقبات الكأداء التي عانى منها الباحث، حيث اكتنفته ظلماتها الحالكة وحيَّرته غاباتها المتشابكة، فكنت كفرس المُتنبِّي الذي

تَعَوَّدَ أنْ يُغَبِّرَ في السَّرَايَا وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ في قَتَامِ

– لهذه الأشواق والأشواك جميعها، وقع اختياري على هذا الموضوع الجلل؛ ليكون حقلاً خصبًا لهذا البحث على الرغم مما يكتنفه من صعوباتٍ بالغة، لكنَّ لذَّة البحث وحلاوة النُّجْح والوصول تجعل العذاب عذبًا، والأُجاج زلالاً، وتجعل من هذا الجهد جهادًا في سبيل كشف اللثام عن تلك الصفحة المطويَّة من تاريخ أدبنا العربي، ومن يخطب الحسناء لم يُغْلها المَهْرُ.

أمَّا عن **منهجي في البحث** فهو المنهج المتكامل، لأنِّي جمعت فيه بين المنهج التاريخيّ في التعامل مع الأخبار والحكم على المرويَّات، والمنهج الوصفيّ في الحديث عن الكتب ومناهج مؤلِّفيها وما تنطوي عليه من مزايا وعيوب، والمنهج الفنيّ في تذوُّق النصوص والموازنة بينها والرؤية الفنيَّة لما طرقته من قضايا النقد الأدبيّ.

وأمَّا عن **خطة البحث** فقد اقتضت طبيعته أن يخرج في أربعة فصول يسبقها تمهيد وتعقبها خاتمة:

في التمهيد: تناولتُ عصر الناقد، مُجلِّيًا حقيقة الموقف السياسيّ وملامح المجتمع وآفاق العلم، لِمَا لها من أصداء مُرِنَّةٍ على النقد والناقد معًا.

ثم كانت الفصول الأربعة:

* **الفصل الأول:** وعنوانه: **(ابن جنّي ومكوِّنات شخصيته النقديَّة)؛ وقد جاء في مبحثين، تناول أولهما:** حياة الناقد من المهد إلى اللَّحد، بدءًا بمولده وما أُثير حوله، ومرورًا بصحبته لأبي عليّ الفارسيّ، وانطلاقًا نحو شمائله وآفاقه الفكريَّة؛ عقديَّة وسياسيَّة وفقهيَّة ونحويَّة، وجلاءً لملامح أسلوبه الفريد، وانتهاءً بمنيَّته التي هي غاية كلِّ حيّ.

وتناول **المبحث الثاني:** الحديث عن مكوِّنات شخصيَّته الناقدة ممثلة في: الأصل الروميّ، والتبحُّر في علوم العربيَّة، والفكر الاعتزاليّ، ومجلس سيف الدولة الحمدانيّ، وصُحبة المُتنبِّي، والشاعريَّة، مع اختلاف نصيب كلٍّ منها في تكوين وتلوين شخصيَّة الناقد.

* **الفصل الثاني:** وعنوانه: **(تراث ابن جنّي النقديّ)؛ وقد وقع في مبحثين أيضًا، تناول أولها:** شروحه للشعر، فبيَّنتُ موقع ابن جنّي من سلسلة شُرَّاح الشعر، ثم تناولتُ ما وُجد من شروحه للشعر وهي: شرحاه لديوان المُتنبِّي، وشرحه لمُشْكل الحماسة، وشرحه لأشعار الهذليين، وشرحه لأرجوزة أبي نُواس.. وقد أفَضْتُ في الحديث عن كلِّ شرح فوصفته، وبيَّنت سبب اختيار ابن جنّي لموضوعه، ومنهج الناقد في كلِّ شرح، وما وراء هذا المنهج من مزايا وعيوب، وما للشرح من أصداءٍ في الشروح اللاحقة.

وتناول **المبحث الثاني:** كتبه اللغويَّة؛ حيث اخترتُ أعظم خمسة من كتبه هي: المُنْصف، وسرّ صناعة الإعراب، والخصائص، والمُحْتَسَب، والخاطريَّات.. وهي أجلُّ كتبه، وأصدقُها تمثيلاً لشخصيَّته، وأحفلُها باللمحات النقديَّة، فبيَّنتُ منهجه في عرض المادة النقديَّة بها، حيث تأتي ممزوجة بالدراسة اللغويَّة، وكيف أنتقِرُ تلك اللمحات حتى تسلك في خيط، أو تنظم في عقد.

* **الفصل الثالث:** وعنوانه: **(قضايا النقد الأدبيّ في فكر ابن جنّي)**؛ حيث نظمتُ تلك الشذرات في عقد القضايا النقديَّة، فانتظمتْ لي هذه القضايا: الرواية وتحقيق النصوص، السلامة اللغويَّة، موسيقى الشعر، القديم والجديد، اللفظ والمعنى، السرقات الأدبيَّة، الفن

والأخلاق، وملامح البناء الداخليّ للقصيدة، وقد جلَّيْتُ في كل قضيَّة رأي الناقد إلى جوار آراء النقاد الآخرين، ثم بيَّنتُ رؤيتي الخاصة التي لا تُبالي بمحالفة ابن جنِّي أو مخالفته، وإنَّما تهدف إلى التوازن بين الانحباس في أقفاص التراث وإغماض العين عن كلِّ جديد، وبين التمرُّد على القيم التراثيَّة والطواف حول القيم الوافدة.

* **الفصل الرابع:** وعنوانه: **(ابن جنِّي بين ناقديه)**؛ قُمت فيه بالموازنة بين آراء ابن جنِّي في شعر المُتنبِّي وآراء من ألَّفوا كتبًا في الرَّدِّ عليه؛ فكانوا ثمانية هم: سعد بن محمد بن على الأزديّ الوحيد (ت 385 هـ)؛ الذي وضع حاشية على الفَسْر، وأبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانيّ (ت بعد 410 هـ)؛ الذي قصر كتابه (الواضح في مشكلات شعر المُتنبِّي) على نقد ابن جنِّي، وأبو الفضل أحمد بن محمد العروضيّ (ت 416هـ)؛ الذي أملى أماليَ في الاستدراك على ابن جنِّي، وأبو الحسن عليّ بن عيسى الربعيّ (ت 420 هـ)؛ الذي ألَّف كتاب (التنبيه على خطأ ابن جنِّي في شعر المُتنبِّي)، والشريف المُرتضَى (ت 436هـ) صاحب كتاب (المُنْصف في تتبع أبيات المعاني التي تكلَّم عليها ابن جنِّي)، وابن فُورَّجة البروجرديّ (ت بعد 455هـ)؛ الذي ألَّف أجلَّ وأشهر كتابين في الرَّدِّ على ابن جنِّي؛ هما: (التجنِّي على ابن جنِّي، والفتح على أبي الفتح)، وأبو سهل محمد بن الحسن الزوزنيّ (ت قبيل 467هـ) صاحب كتاب (قَشْر الفسر)، وأبو العباس أحمد بن عليّ بن الحسن بن معقل الوحيد المهلبيّ (ت 644هـ)؛ الذي ألَّف كتاب (المآخذ على شُرَّاح ديوان المُتنبِّي)، وقد وصفتُ كتب هؤلاء جميعًا، سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة أم نصوصًا مجمَّعة، واستلهمتُ ملامح مناهج أصحابها، ووازنت بين آرائهم ورأي ابن جنِّي مصطنعًا الإنصاف ما استطعتُ إليه سبيلاً، عارضًا وجهة نظري التي أملاها عليَّ تذوقي للنصّ، ولم يُملها عليَّ شخص، لأنِّني لم أُبال بمن أحالف أو أخالف، فكلُّ إنسان يؤخذ ويُردُّ من قوله.

ثم جاءت الخاتمة: التي تضمَّنت أهم نتائج البحث وتوصيات الباحث.

وقد توخَّيتُ في بحثي هذا تخريج الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة وجُلَّ أبيات الشعر من مصادرها الأصيلة، فإنْ ذكرت شيئًا من شعر المُتنبِّي دون شرح خرَّجته من طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام؛ التي هي أوفى الطبعات وأكملها، وإن رجعتُ إلى شيءٍ من الشرح أحلْتُ على ذلك الشرح في التخريج.

كما توخَّيْتُ الترجمة لكلِّ الأعلام الذين دارت الدراسة حول بعض جهودهم، تاركًا من سواهم ممن يرد ذكرهم عرضًا أثناء الدراسة، وتوخَّيتُ كذلك تفسير الكلمات الغامضة - في نظري - معتمدًا على لسان العرب، كلُّ كلمة في مادَّتها، ولذا لم أنصّ على ذلك، فإنْ رجعت إلى غير اللسان نَصَصْتُ على مرجعي في التفسير.

وبعد...

فهذا الجهد - على ضخامته - هو جهد المقلّ، لكنْ يشهد الله أنِّي لم أدخر وسعًا، ولم أخلد إلى الراحة في سبيل بحثي هذا، فكم من ليلٍ عليَّ - وأنا على مائدة البحث - قد عَسْعَسَ، وكم من صُبحٍ - والمراجع بين يديّ - قد تنفَّس، وكلُّ مطالع لبحثي هذا يدرك طول الشُّقة التي قطعتُها، وضخامة المشقَّة التي تحمَّلتُها، لكنَّ سبيل الباحث هو استعذاب العذاب، وعدم الرضا من الغنيمة بالإياب.

فإنْ كنتُ قد وفِّقتُ في بحثي هذا فلله الحمدُ والمنَّة، وإن كانت الأخرى فحسبي الأجر الواحد لمن اجتهد فأخطأ، فالكمال لله وحده، وكلُّ بني آدم خطَّاء:

وَمَنْ ذَا الذي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى المَرْءُ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايبُهْ

واللهَ أسال أن ينال البحث القبول إنَّه خيرُ مأمول وأكرمُ مسئول.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:88]

مصطفى محمد رزق السواحلي

التمهيد

(عصر الناقد)

مهما تباينت آراء المؤرخين حول لتاريخ ميلاد ابن جنِّي وزمان وفاته، فلن تجاوز به حدود القرن الرابع الهجريّ، ذلك القرن الأغر المحجَّل، الذي حظي فيه العِلْم بما لم يحظ به من قبل، فكان لزامًا علينا أن نُعطي لمحة تضيء جوانب هذا العصر الذي غذَّى الناقد بلِبانه، وعاش بين أحضانه، وكتب سطور علمه وآيات مجده على صفحته، فازدادت وضاءة وإشراقًا.

فمن المؤكَّد أنَّ العالِم وليد مخاضات معينة، ورضيع لبان خاصة تؤثِّر دون شكّ في تكوين عقله وتلوين فكره، ناهيك عن أعاصير السياسة ولُحْمة المجتمع وهيكل الثقافة، فإنَّ الناقد أو الأديب ليس نبتًا شيطانيًّا وُلِدَ هَمْلاَ، ولا صخرة صمَّاء لا تتأثر بما حولها، وإنَّما هو كيانٌ من لحم ودم، من عقلٍ ووجدان، يتأثر بما يدور حوله إيجابًا وسلبًا.

نعم؛ نحن لا نغلو في حقيقة هذا التأثر والتأثير غُلُوَّ أصحاب المناهج الطبيعيَّة في درس الأدب من أمثال (سنت بيف، وتين، وبرونتيير)، الذين يرون أنَّ الأديب وكل آثاره ثمرة قوانين حتميَّة عملت في الماضي، وتعمل في الحاضر، وستظل تعمل في المستقبل، فهو يصدر عنها صدورًا حتميًّا لا مفرَّ منه ولا خلاص، إذ تشكِّله وتكيِّفه حسب مشيئتها، وحسب ما تحمل في تضاعيفها من جبرٍ وإلزام... وقد حصروا تلك المؤثرات في: الجنس والزمان والمكان.[1]

ذلك أنَّ هذه النظرية تحوِّل الأديب إلى جلمود صخر حطَّهُ السيل من عَلُ، تشكِّله عوامل التعرية كيفما تشاء، أو إلى مادة كيماوية تتفاعل مع غيرها تفاعلا محسوم النتيجة محتوم الأثر بلا فكاك، وذلك من شأنه أنْ يقتل الإنسانَ في الإنسان، وأنْ يدمِّر العبقريات الخاصَّة التي لا تخضع لتلك القوانين المحسوبة، فالعبقريَّة الشخصيَّة والفذاذة الذاتيَّة قد تعلو بصاحبها فوق

(1) انظر: البحث الأدبي؛ د. شوقي ضيف، الطبعة السادسة، دار المعارف، ص85، 86.

مواضعات الجنس والزمان والمكان، وتطير به إلى آفاق رحبة من الإبداع المحلّق والتحليق المبدع قاهرة كلَّ هذه المواضعات الثابتة.

وعلى الرغم من هذا فإنَّ للزمن دورًا لا يُجْحد في صبغ نفس الأديب بأصباغٍ معينة، تحكى سمة عصره نضارة أو شحوبًا، وتعكس ما فيه من جمالٍ رائع أو قُبح فاجع.

وحديثنا عن العصر لن يمتدَّ بنا إلى منعطفات التاريخ وزواياه الدقيقة التي تهمُّ المؤرخ المدقِّق، وحسبنا أنْ نرسم صورة لهذا العصر سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا بحيث تجعل المساحة الزمنيَّة أكثر إضاءة وإشراقًا دون إيجاز مُخِلٍّ أو إطنابٍ مُمِلّ.

*** الحالة السياسيَّة:**

شهد القرن الرابع الهجريّ انتكاسة سياسيَّة لم يسبق لها مثيل، فبعد أن كان العالم الإسلاميُّ دولةً موحَّدة مرهوبة الجناب، تُناطح الجوزاء، وترتدي ثياب العزَّة القعساء، دارت عليها عوادي الزمان ونوائب الحدثان، فسقطت فريسة للأهواء والعصبيات، وارتكست طوال هذا القرن في حمأةِ الحروب الداخلية، فانفرط عِقد الدولة الإسلاميَّة، وتمزَّقت شَرَّ ممزق، حيث تغلَّب كلُّ أمير على جهةٍ، ولم يبقَ للخليفة غير بغداد وما حولها، وليت هؤلاء الأمراء عاشوا على الوئام، بل ناصبت كلُّ دولة أختها العداء، وصار بأسُهم بينهم شديدًا، وجعل بعضهم يضرب رقاب بعض، حتى سُفكت الدماء الإسلامية مدرارًا ومِغْزارًا ومكثارًا، والخليفة العاجز لا حول له ولا قوة، فهو خليفة بالاسم، والحقيقة أنَّه لا يلي أمر نفسه، وإنَّما التُّرك أو الديلم يحرِّكونهم كما تُحَرَّك قطع الشطرنج، يدلُّ على ذلك؛ أنَّه لما جلس المعتزّ على سرير الخلافة قعد خواصُّه وأحضروا المُنَجِّمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش، وكم يبقى في الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول إنَّه يعيش وإنَّه يملك؟ فقال: مهما أراد التُّرك. فلم يبق بالمجلس إلا من ضحك.[1]

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية؛ لابن الطقطقي، ط. مطبعة الموسوعات بمصر، ص220.

فإذا كان هذا حال المعتز (ت 255 هـ) وللخلافة بعض السلطان، فلا شكَّ أنَّ الطين قد زاد بِلة، وأنَّ الانهيار قد جاوز حزامه الطُّبْيَيْن في القرن الذي نحن بصدده.

وإذا كان حال أمير المؤمنين يُعطى انطباعًا صحيحًا عن حال الدولة قوةً أو انحلالًا، فحسبنا أن نلمح بإيجازٍ شديد إلى **خلفاء المسلمين الثمانية الذين تعاقبوا على دولة الإسلام خلال القرن الرابع الهجري:**[1]

(1) **المقتدر:** أبو الفضل جعفر بن المعتضد؛ وقد تولى من [295هـ: 320هـ]، وكان بدء خلافته وعمره ثلاث عشر سنة، وفي عهده اضطرب الحال، وزاد خطر القرامطة، حتى إنَّهم في عام (317هـ) ساروا إلى مكة يوم التروية، فنهبوا أموال الحجيج، وقتلوهم في المسجد الحرام وقلعوا الحَجَر الأسود من الكعبة ونقلوه إلى هَجَر، وظل عندهم اثنين وعشرون عامًا، وطرحوا القتلى في بئر زمزم، ودفنوا الباقين في المسجد الحرام بغير غُسْل ولا كفن ولا صلَّى عليهم أحدٌ، وظلَّ هذا الفساد العريض حتى خرج عليه غلامه "مُؤْنس" بصحبة بعض الجند، فذبحوه بالسيف، وسلبوا ثيابه، وحملوا رأسه على رُمْحٍ وطافوا به، وبقي الخليفة مكشوف العورة حتى ستره بعض العامة بالحشيش، ثم حُفِرَ له بالموضع الذي هو فيه ودُفن.

(2) **القاهر:** أبو منصور محمد بن المعتضد؛ وقد تولى من [320هـ: 322 هـ]، وقد ولاّه خادمه مؤنس على مضض، لأنَّه كان يريد تولية ابن المقتدر، وفي عهده اضطرب الأمر، وبدأ البويهيون يسيطرون على أجزاء من بلاد فارس، والخليفة على كرسيِّه مثل الدُّمية، حتى هجم عليه غلمانه فوجدوه مخمورًا فأخذوه وأودعوه السجن وسَمَلوا عينيْه، وربما كانوا يُخرجونه ليتسوَّل على باب جامع المنصور، ليصير مُثْلة وعبرة.

---

(1) انظر في سيرهم جميعًا: الكامل في التاريخ؛ لابن الأثير، ط. دار صادر، من أول جـ 8 إلى 9/ 417، البداية والنهاية؛ لابن كثير، ط. دار الحديث 1992م، 11/ 110 وما بعدها، تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي، ط. دار الجيل؛ ص440: 480، الفخري؛ ص234: 260.

(3) **الراضي بالله:** أبو العباس أحمد بن المقتدر؛ تولى من [322هـ: 329هـ]، وقد كان محبوسا بأمر القاهر، فلما قُهِرَ القاهر، أخرجوه من السجن وولّوه الخلافة، وفى عهده استفحل خطر القرامطة حتى إنَّهم اعترضوا الحُجَّاج عام 323هـ عند القادسية، ومنعوا أهل العراق جميعًا من الحج، وواصل البويهيون انتصاراتهم فاستولوا على كرمان والأهواز وواسط وأصبهان، بل اجترأ الأمراء الصغار في عهده على لقب أمير المؤمنين، فتسمَّى به عبد الرحمن بن محمد الأمويّ بالأندلس، والمهديّ بالقيروان، وظل على كرسيه حتى تُوفِّى عام 329هـ.

(4) **المتقي بالله:** إبراهيم بن المقتدر؛ وقد تولَّى من [329هـ: 333هـ]، حيث بُويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الراضي، ويبدو أنَّه كان تقيًّا عابدًا، لكنه لم يسيطر على مقاليد الأمور، إذ استفحل أمر القوّاد مثل: (ابن رائق، وبِجَكم، وتوزون)، وقد اهتبل الأخير فرصة خروج المتَّقى إلى الرِّقَّة للقاء الإخشيد، فقبض عليه، وسمل عينيه، وأودعه السجن خمسة وعشرين عامًا حتى مات، وفى سمله يقول القاهر المسمول من قبل:

صِرْتُ وَإِبْرَاهِيمَ شَيْخَيْ عَمًى ... لا بُدَّ لِلشَّيْخَيْنِ مِنْ مَصْدَرِ

مَا دَامَ تُوزُونُ لَهُ إِمْرَةٌ ... مُطَاعَةً فَالْمَيْلُ في المَجْمَرِ

(5) **المستكفي بالله:** أبو القاسم عبد الله بن المكتفي؛ وقد تولى من [333هـ: 334هـ]، حيث بُويع بعد سَمْل المتقي، وفى عهده دخل البويهيون بغداد، ثم دخلوا قصره وسلَّطوا عليه عبدين يجرّانه من على الكرسيّ، حتى طرحاه أرضًا ثم سُمل ليلحق بسابقيه.

(6) **المطيع بالله:** أبو القاسم الفضل بن المقتدر؛ وقد تولى من [334: 363هـ]، وعلى الرغم من طول مدة خلافته، فقد ازداد أمر الخلافة إدبارًا، ولم يبق له من الأمر شيء إلا كاتبٌ يُدِير إقطاعه، ويُحَصِّل خِراجه لا غير، وظلت الوزارة بيد البويهيين يستوزرون من شاءوا، حتى أصاب الفالِجُ هذا الخليفة الدُّمية، وثقُل لسانه، وتعذَّرت حركته، فأُعْفى من منصبه.

(7) **الطائع:** أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع؛ وقد تولى من [363: 381هـ]، وفى عهده استولى القرامطة على الكوفة، واحتدمت الصراعات بين البويهيين، حتى إنَّهم أنكروا عليه

حبس رجل من خواصّ بهاء الدولة، فقبضوا عليه وجرُّوه من على كرسيِّ الخلافة، وهو يستغيث في منظرٍ يجعل الولدان شيبًا، رآه الشريف الرضيّ فسجَّل مرارته في نونيته الرائعة:[1]

لَوَاعِجُ الشَّوْقِ تُخْطِيهِمْ وَتُصْمِينِي وَاللَّوْمُ في الحُبِّ يَنْهَاهُمْ وَيُغْرِينِي

(8) **القادر بالله:** أبو العباس أحمد بن إسحاق المقتدر؛ وقد تولى من [381 : 422هـ]، ويبدو أنَّه كان على جانب من القوة والهيبة، حيث أذلَّ الديلم، وأعاد للخلافة بعض هيبتها، فألقى اللهُ هيبته في القلوب، وقد أورد المؤرخون له شعرًا عامرًا بالتقوى والورع، وقد تُوفِّي عام 422هـ، بعدما أمضى في الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر.

وهكذا توشَّح هؤلاء الخلفاء بوُشُح الألقاب، وتواروا وراء مسوح الأسماء التي هم منها ومن تبعاتها وجلالتها براء، مما يقطع بوصول الأمة إلى الدرك الأسفل من الانحدار السياسيّ.

*** الحالة الاجتماعيَّة:**

لم تكن الحالة الاجتماعيَّة أقل سوءًا من الحالة السياسيَّة، فلو أنَّ المجتمع لُحمة واحدة متماسكة البنيان عامرة القلب والعقل بالإيمان والفكر لغيَّرت فساد الحاكم، فإنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا بأنفسهم، وبإمكاننا أنْ نرصد الملامح الآتية للمجتمع:

(1) لم يعُد المجتمع عربيًّا خالصًا كما كان في عهد بني أُميَّة، فقد كثُر التُّرك في المجتمع الإسلاميّ منذ استقدمهم المعتصم، واستفحل أمر الدَّيْلم منذ استولوا على بغداد عام 334هـ، وإذا كان الوئام بعيدًا بين العرب الخُلَّص فهو مع وجود هذه الأجناس أبعد منالا من العيوُّق، ومما زاد الطين بِلَّة أنَّ التهجين قد دقَّ أبواب الخلفاء الذين راقتهم حسناوات الروم وجميلات الفُرس، وبمحض المصادفة وجدت أمهات الخلفاء الثمانية كلَّهن غير عربيات: فأمُّ المقتدر روميَّة، تُدْعى (غريب)؛ وقيل: شغب، وأمُّ القاهر أم ولد تسمى (فتنة)، وأمُّ الراضي أم ولد تسمى (ظلوم)، وأُم المتقى أمُّ ولد تسمى (خلوب)؛ وقيل: زهرة، وأمُّ المستكفي أم ولد تسمى

(1) ديوان الشريف الرضيّ، ط. دار صادر: 2 / 244.

(أملح الناس)، وأمُّ المطيع أم ولد تسمى (شغلة)، وأمُّ الطائع أم ولد تسمى (هزار)؛ وقيل: عتب، وأمُّ القادر أم ولد تسمَّى (تمنى)؛ وقيل: دمنة.[1]

وكأنِّي بهؤلاء الأعجميات قد تسلَّلن إلى كلِّ بيتٍ عربيّ فأصبح التوليد سمة معهودة بعد أن كان معرَّة منقودة.

(2) اتسعت هُوَّة الطبقية بين فئات الشعب؛ إذ زاد المترفون من الخلفاء والوزراء والقُوَّاد ترفًا، فنهلوا من كأس النعيم وعَلُّوا، واحتسوا من كئوس اللذة المُتْرعة حتى الثُّمالة، وأنفقوا على ملاهي العيش وكماليات الحياة بلا حدود، وحسبنا ما رُوى: أنَّ المقتدر ختن في يومٍ خمسة من أولاده، فغرم على ختانهم ستمائة ألف دينار.[2]

بل يقول عنه ابن الطقطقي: «كان في داره أحد عشر ألف خادم خِصِيٍّ من الروم والسودان، وكانت خزانة الجوهر في أيامه مُتْرَعة بالجواهر النفيسة، فمن جُملتها الفص الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة ألف دينار، والدُّرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل، إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة، ففرَّقه جميعه، وأتلفه في أيسر مدة».[3]

ويقول عنه ابن الأثير: «وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرًا وتضييعًا في غير وجه نيفًا وسبعين ألف ألف دينار».[4]

وهي أرقام تُغني عن كلِّ عبارة، وتنطق بلسان الحساب معبِّرة عن الإنفاق بلا حساب.

وبجوار تلك الطبقة وُجِدَت طائفة من البائسين الذين عضَّهم الجوع بنابه، وخيَّم عليهم ليل الفقر المُدقع الذي أردف أعجازًا وناءَ بكلكل، وأبَى أن ينجلي بنهارٍ يذوق فيه هؤلاء للنعيم طعمًا، ولا غرو ففي أيام الفتن - وكلُّ أيامهم فتن - تلد فيه أشباح الجوع حرمانًا مقيتًا

(1) انظر سيرهم وأسماء أمهاتهم في: تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي؛ ص440: 480.
(2) تاريخ الخلفاء؛ ص242.
(3) الفخري؛ ص234.
(4) الكامل في التاريخ؛ لابن الأثير: 8/ 243.

يأخذ طوائف البائسين أخذًا وبيلاً، وحسبنا هذا الخبر عما أصاب أهل بغداد في زمن المطيع، «فقد اشتد الغلاء ببغداد حتى أكلوا الجِيَف والرَّوَث، وماتوا على الطُّرق، وأكلت الكلاب لحومهم، وبيع العقار بالرغفان، واشتُري لمُعِزّ الدولة كُرٌّ دقيق بعشرين ألف درهم»؛[1] ومن ثَمَّ كثُر المُكْدُون من الساسانيين الذين احترفوا التسول احترافًا ألهم "البديع" فنَّ المقامة الرفيع.

(3) لم يعُد المجتمع لُحمة دينية متماسكة، بل زادت الهُوَّة بين فئتيْ الفُسَّاق والنُّسَّاك، إذ وجد جماعة من أهل الفضل، ظلوا قابضين على دينهم كالقابض على الجمر، رغم شراسة الفتن، فزهدوا الدنيا وزخارفها، وتركوا متاعها وراء ظهورهم، وأبوا الانخراط في سلك الضَّالين اللاهين وراء متاعها الغرور، بل كان همّهم الطاعة، وطعامهم التسبيح، وأنفاسهم ذِكر الله، ولذا كثُر أدب المتصوفة والزُّهاد في هذا العصر كثرة لافتة.

وإلى جوارهم وُجِدَ المستهترون السائرون في طريق الغواية، الشاربون من كأس العربدة؛ فاحتسوا الخمر، وتعشَّقوا الغلمان، وقضوا لياليهم الحمراء في الأديرة والحانات، يستمتعون إلى أغاني الفُسَّاق، ويشربون من الخمر حتى الثُّمالة، ويمارسون الجنس مع شياطين الإنس من الفتيات والغلمان المُخَنَّثين على السواء، ومن يقرأ "الأغاني" أو "اليتيمة" أو غيرهما من الكتب التي صوَّرت العصر يدرك مدى الفاجعة المروِّعة التي لم يسلم منها إلا من آوى إلى جبل الفضيلة، فعصمه الله من طوفان الفسوق.

* الحالة العلميَّة:

كان من المتوقع مع هذا الفساد السياسيّ العريض، وذلك الصدع الاجتماعيّ الفاجع، أن تهوي الثقافة إلى الدرك الأسفل من الانحدار المريض، لكنَّ الأمر جاء بالضد، فرُبَّ ضارة نافعة، ومن السموم الناقعات دواء، إذ وجدنا الحركة العلميَّة تصل إلى أَوْج الازدهار الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الإسلام حتى سمَّاه "جرجي زيدان" بـ(عصر الإسلام الذهبيّ)؛ حيث يقول: «وأمَّا عصر الإسلام الذهبيّ للعلم خاصة، فهو العصر الذي نحن بصدده أو المائة

(1) تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي، ص461.

الثالثة للدولة العباسيَّة، لأنَّه فيه نضجت العلوم على اختلاف موضوعاتها، وتمَّ نموها، وظهرت الكتب الوافية في أكثرها، ولا سيَّما في اللغة وعلومها، وفى التاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة».[1]

فإنْ صَحَّ هذا - وهو صحيح عندي - كان معناه أنَّه ليس من اللازم اللازب أنْ يصاحِب المجدَ السياسيَّ مجدٌ علميٌّ، وأنْ يقترن الانحدارُ السياسيُّ بانحدار ثقافيّ «فقد تسوء الحالة السياسيَّة إلى حدٍّ ما وتزدهر بجانبها الحياة العلميَّة، وذلك لأنَّ الحياة السياسيَّة إنَّما تحسُن بتحقيق العدل، ونشر الطمأنينة بين الناس، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيرًا من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة على أن يفرُّوا من العمل السياسيّ إلى العمل العلميّ، لأنَّهم يجدون العمل السياسي يُعَرِّضهم لمصادرة أموالهم، وأحيانًا إلى إزهاق أرواحهم، على حين أنَّ العمل العلميَّ يحيطهم بجوٍّ خاصٍّ هادئ مطمئن، ولو كان الجو العام مائجًا مضطربًا».[2]

ولذلك وجدنا جراثيم التشرذم والضياع الناخرة في عظام العالم الإسلامي حتى النخاع قد استحالت مُخَصِّباتٍ قويَّة لهذه الدول الناشئة التي تطمع كلُّ إمارة منها أنْ تُناطح العاصمة بغداد، بل تتمنَّى أن تستلب بِساط المجد العلميّ من تحت أقدام البغداديين، ولذا وجدنا الأمراء يغدقون على العلماء بلا حدود، لأنَّ ذِكر العلماء هو الباقي، فإذا ما نِيط باسمه اسم الأمير كُتِبَ للأمير الخلود، ومن هنا لم يبخل الأمراء على العلماء بمالٍ، لأنَّهم يعتقدون أنَّ المال مَهْرٌ للمجد، وشتان بين مالٍ زائل ومجد خالد.

يدلّنا على ذلك هذا الخبر الهام الذي رواه الصوليُّ في أوراقه، «فقد كان الصوليُّ من المقرَّبين إلى (بِجَكم)؛ وهو تركيٌّ لا يحسُن العربيَّة حتى إنَّه كان يقول: أخاف أنْ أتكلَّم العربية فأُخطئ في لفظي، والخطأ من الرئيس قبيح. فاستدعى الصوليَّ يومًا وقال له: إنَّ أصحاب الأخبار

(1) تاريخ آداب اللغة العربية؛ جرجي زيدان، ط. دار الهلال: 2/ 224.
(2) ظهر الإسلام؛ أحمد أمين، ط. النهضة المصرية، 1978م: 1/ 96.

رفعوا إليَّ أنّى لما طلبتك من المسجد قال الناس: أعْجَلَه الأمير، ولم يتم مجلسنا، أفتراه يقرأ عليه شعرًا أو نحوًا أو يسمع من الحديث؟! وقد ذهب عليهم أمرى، أنا إنسان - وإن كنت لا أُحْسِن العلوم والآداب - أحبُّ ألا يكون في الأرض أديب ولا عالِم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبي، وتحت اصطناعي، وبين يدي، لا يفارقني».[1]

فالقائد بجكم - على عُجْمته - يتمنَّى تجريد الأرض قاطبة من العلماء، متطلعًا إلى اليوم الذي يتحول فيه مجلسه إلى كعبةٍ، العلماء زوَّارها، والأدباء مسبِّحون بحمدها، والكُتَّاب دائرون في فلكها مهما كلَّفهم ذلك من مال.

ومن ثَمَّ سمعنا عن العطايا الجزيلة التي نالها الشعراء والعلماء والتي لم نسمع بمثلها من قبل، بل ربما لم تَدُرْ يومًا بخيال أحدهم، وهي دون شكٍّ سوف تُذْكي من جذوة العلم إنْ كانت كامنة تحت الرماد، وتزيدها توهجًا إنْ كان خابية الضوء، وتجعل نهر الإبداع يتدفَّق على ألسنة الأقلام عذبًا سلسلاً، وحسبنا من ذلك ما رُوي: أنَّ المُتنبِّي لما أنشد سيف الدولة لاميَّته التي مطلعها:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ

وفيها:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعْ احْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلْ

فوقَّع سيف الدولة تحت أَقِلْ: أقلناك، وتحت أَنِلْ: يحمل إليه من الدراهم ما يُحِبُّ، وتحت أَقْطِعْ: أقطعناك ضيعة كذا بباب حلب، وتحت احْمِلْ: نحمل إليك الفَرَس الفُلانية، وتحت عَلَّ: قد فعلنا، وتحت سَلَّ: قد فعلنا فاسْلُ، وتحت أَعِدْ: أعدناك إلى حالك من حُسن رأينا، وتحت زِدْ: يزاد كذا وكذا، وتحت تَفَضَّلْ: قد فعلنا، وتحت أَدْنِ: أدنيناك، وتحت سُرَّ: قد سررناك - قال أبو الفتح: قال أبو الطيِّب: إنَّما أردت من التسرية فأمر له بجارية - وتحت

(1) أخبار الراضي والمتقي من كتاب «الأوراق» للصولي، ط. الصاوي؛ ص194، 195.

صِلْ: قد فعلنا. وكان بحضرة سيف الدولة شيخ يضحك منه يقال لـه المَعْقـليّ؛ حـسد المُتنبِّـي على ما أعطاه سيف الدولة فقال: يا مولاي؛ هلاّ قلت له: لِمَا قال: هش بـش: هـئ هـئ تحكـي الضحك؟ لأنَّك قد فعلت له بما أراد فهـلاّ ضـحكت؟ فـضحك سـيف الدولـة منـه، وقـال: اذهب يا ملعون».[1]

وعلاوة على هذا كانت المجالس الأدبيَّة التي تحتضن العلم والثقافة تنعقد في شـتَّى أرجـاء الدولة الإسلامية، فيخف إليها العلماء زُرافات ووحدانًا من كل صوب وحدب، حيـث ينـشد الشعراء ويتجادل المفكرون في الأدب والنقد واللغة والنحو والدِّين والفلـسفة، وأشـهر تلـك المجالس مجلس سيف الدولة الحمـداني بحلـب - والـذي سـوف نخـصُّه بكلمـة مـستقلة -، وهناك مجلس الوزير ابن سعدان (ت 375هـ)؛ والذي كان يضم لفيفًا مـن الـشعراء والأدبـاء والفلاسفة، فكان دوحة فَيْنانة حافلة بأشهى الثمار، وكان مائدة رفيعة حافلة بما لذَّ وطاب مـن فنون العلم والأدب، وهو المجلس الذي أثمر لنا كتاب التوحيدي الفريد «الإمتاع والمؤانسة»؛ الذي ضمَّ سبعة وثلاثين مجلسًا لهذه الكوكبة الرائعة، ظهر فيها أبو حيَّان كأنَّما يغرف مـن بحـرٍ يفيض ولا يغيض.

وفى مصر كان هناك مجلس الوزير جعفر بن الفضل بـن الفـرات المعـروف بـابن حِنْزَابـة؛ الذي ظل يقود الحركة الفكريَّة في مصر قرابة عشرين عامًا، فخفَّ العلماء إلى مجلسه مـن أمثـال المسعوديّ صاحب «مروج الذهب»، والدارقطني صـاحب «المـسند»؛ الـذي أنفـق عليـه ابـن حنزابة نفقة واسعة، يُروى: أنَّه قَبْل الوزارة حَضَرَ مجلسًا للإمـام البَغَـوي، فلـما أصـبح وزيـرًا فَقَدَه، فكان يقول وقد افتقده: «من جاءني به أغْنَيْتُه».[2]

---

(1) انظر: شرح الواحدي لديوان المُتنبِّي؛ ص493، يتيمة الدهر: 1/ 147، معجـز أحمـد: 3/ 281، التبيـان في شرح الـديوان: 3/ 85، 86، الـذخيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة: 3/ 1/ 496. وقولـه «أقلناك»: كأنَّه يعفو بها عن غلاظة قول المُتنبِّي في قصيدته السابقة لها:

واحرَّ قلبـاه ممَّـن قلبـه شبـم وَمَنْ بجسمي وحالي عنده سقم

(2) وفيات الأعيان: 1/ 347، 3/ 298، معجم الأدباء: 2/ 376 وما بعدها.

وأخيرًا؛ فقد كان من عوامل تنمية الثقافة في ذلك العصر دُور العلم العظيمة التي حوت من نفائس المخطوطات ما لا مثيل له، مما يشجِّع العلماء على البحث المُنَقِّب بين أكداس الكتب، ويعبِّد طريق العلم أمام الشُّداة فلا تحبط نفوسهم من وعورة الطريق.

ففي بغداد كانت هناك دار "سابور بن أردشير"؛ التي أُسست عام 383هـ، وقد اشترى لها أول إنشائها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد، كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثَّقة التي امتلكها علماء ثقات مشهورون،[1] وهى التي زارها أبو العلاء المعرِّيّ وأشار إليها في قصيدته التي مطلعها:

مَغَانِي اللِّوَى مِنْ شَخْصِكِ اليَوْمَ أَطْلالُ وَفِي النَّوْمِ مَغْنًى مِنْ خَيَالِكِ مِحْلالُ

حيث يقول:

وَغَنَّتْ لَنَا في دَارِ سَابُورَ قَيْنَةٌ مِنَ الوُرْقِ مِطْرَابُ الأَصَائِلِ مِيهَالُ[2]

وفى شيراز بنى عضد الدولة دارًا لم يُرَ مثلها، وجعل بها خزانة كتب لم يبق كتاب صُنِّف في وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصَّله فيها.[3]

وفى الرَّيِّ كانت للصاحب بن عبَّاد دار كتب عظيمة بدليل قوله معتذرًا عن إجابة دعوة نصر بن نوح الساماني: «... ثم كيف لي بحمل أموالي مع كثرة أثقالي، وعندي من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمائة جمل أو أكثر».[4]

وفى مصر كانت هناك خزانة العزيز بالله الفاطميّ؛ والتي حوت ما يزيد على مائة ألف مجلد يقوم عليها أبو القاسم الشابشتي صاحب «الديارات»، وكان بها أكثر من ثلاثين نسخة من

---

(1) المنتظم؛ لابن الجوزي: 14/ 366، البداية والنهاية: 11/ 334، تاريخ التمدن الإسلامي: 3/ 229.

(2) شروح سقط الزند: 3/ 1239. وميهال: من الوهل؛ وهو الفزع، كأن تلك الحمائم تفزع من الإنس.

(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص499.

(4) معجم الأدباء: 2/ 262.

كتاب العين، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد، وما زال الخليفة يُعْنَى بها حتى باتت من عجائب الدنيا.[1]

وفى الأندلس كانت هناك مكتبة الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر الأُمويّ، التي حوت أربعمائة ألف كتاب، كانت فهارسها في أربعٍ وأربعين كراسة، في كل كراسة عشرون ورقة، وحسبك أنَّه دفع لأبي الفرج الأصفهانيّ ألف دينار ذهبًا ليبعث له بنسخةٍ من كتاب «الأغاني» قبل إخراجه إلى بني العباس.[2]

كلُّ هذا إنَّما يدل على أنَّ جذوة الثقافة ظلَّت مُتَّقِدة لكل مقتبس، وأنَّ نورها الوهَّاج ظلَّ يُضيء جنبات المعمورة، وأنَّ شجرة العلم حظيت بعناية ورعاية فائقة حتى آتت أُكلها كُلَّ حينٍ بإذن ربها، فلا نعجب إذا رأينا هذا القرن يجمع كوكبة لامعة من خير المؤلِّفين في كلِّ العلوم، نذكر بعض أسماء نوابغ هذا القرن في مجال اللغة العربية وآدابها:

ففي اللغة نجد: ابن دريد (ت 321هـ)، وأبا منصور الأزهريّ (ت 370هـ)، وابن فارس (ت 390هـ)، والجوهريّ (ت 398هـ) وغيرهم.

وفى النحو والصرف نجد: الزَّجَّاج (ت 311هـ)، وابن درستويه (ت 347هـ)، والسيرافيّ (ت 368هـ)، وأبا عليّ الفارسيّ (ت 377هـ)، وابن جنِّي (ت 392هـ) وغيرهم.

وفى تاريخ الأدب نجد: الصوليّ (ت 335هـ)، وأبا الفرج الأصفهانيّ (ت 356هـ)، وابن عبد ربه (ت 328هـ)، والثعالبيّ (ت 429هـ).

وفى الشعر نجد: المُتنبِّي (ت 354هـ)، وأبا فراس الحمداني (ت 357هـ)، وكُشَاجم (ت 360هـ)، والسَّريّ الرفاء (ت 362هـ)، وابن هانئ الأندلسي (ت363هـ)، والشريف الرضى (ت 406هـ).

---

(1) النجوم الزاهرة: 4/ 205، تاريخ التمدن الإسلامي: 3/ 231.
(2) تاريخ ابن خلدون: 7/ 316.

وفى النثر الفنيّ نجد: الصاحب بن عبَّاد (ت 385هـ)، وابن العميد (ت 360هـ)، وبديع الزمان الهمذانيّ (ت 398هـ)، وابن نباتة السعديّ (ت 405هـ)، وأبا حيَّان التوحيديّ (ت 414هـ تقريبًا).

وفى مجال البلاغة والنقد الأدبيّ نجد: قدامة بن جعفر (ت 337هـ)، والآمدي (ت371هـ)، وأبا هلال العسكري (ت 395هـ)، والقاضي الجرجاني (ت 392هـ)، وابن وكيع التنِّيسي (ت 393هـ).

تلك بعض أسماء نجوم العلم التي لمعت في سماء القرن الرابع الهجريّ، كاتبة بأقلامها أروع آيات المجد والخلود لها ولعلومها.